ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:08، العدد: 02(2023) ص: 108 - 121

الاختيار والانزياح بين البلاغة والأسلوبية

Choice and deviation between rhetoric and stylistic

د. قادة يعقوب*

جامعة البويرة (الجزائر)

Kader.yakoub@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2023/02/06

تاريخ القبول: 2023/09/11

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **البلاغة**
- ✓ **الاختيار**
- ✓ **الانزياح**

الملخص:

المقارنة سبيل من سبل البحث المؤدي إلى المعرفة، وإقامتها بين البلاغة القديمة، والأسلوبية الحديثة تأمّلنا من ورائها أن نوضّح ما بين الدّرسين من روابط معرفية، وتجاذب في المفاهيم، وقد قارنا بين مفهومي الاختيار والانزياح في البلاغة القديمة(العربية والغربية) والأسلوبية الحديثة، وجمعنا وفق ترتيب مخصوص تحديدات الدّارسين، ونسّقناها بحيث يسهل ملاحظة تطوّر المفهومين. إنّ تركيز المقارنة على مفهومي الاختيار والانزياح في الدرسين البلاغي والأسلوبي من وجهة أنهما يحدّدان الأسلوب أحسبها كفيلة بإيضاح علاقات البلاغة القديمة بالأسلوبية الحديثة.

وقد توصّل البحث إلى نتائج لعل أهمّها أنّ محاولة الدراسات الأسلوبية الاستقلال عن البلاغة، غير أنّها ما زالت تحتاج إلى العودة إلى المنظومة المصطلحية للبلاغة القديمة، تقيم حوارا معها لتتجنب المآزق التي وقعت فيها. كما استخدم الدّارسون معطيات اللّسانيات الحديثة في تحليل المفاهيم البلاغية حتّى تنتظم في الدرس الأسلوبي.

Article info

Received
06/02/2023

Accepted
11/09/2023

Keywords:
- ✓ *Rhetoric*
- ✓ *Choice*
- ✓ *Deviation*

Abstract :

Abstract:

Comparison is a way of research that leads to knowledge. By establishing it between ancient rhetoric and modern stylistics, we hope to clarify the cognitive links between the two disciplines and the attraction of concepts. We have compared two concepts, namely, choice and deviation in ancient (Arabic and Western) rhetoric and modern stylistics. The researchers' definitions were collected in a chronological order respectively as to make it easy for the reader to learn about the two concepts evolution. We deeply believe that comparing the concept choice with the concept deviation in rhetoric and stylistics from the point of view that both concepts determine the style, is enough to show clearly the relation between ancient rhetoric and modern stylistics.Perhaps, the most important conclusion of this paper is that studies have been carried out attempting to make of stylistics a discipline independent from rhetoric.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة

قارن الدّرس الأسلوبي الحديث- على اختلاف مشاربه واتجاهاته- بين الأسلوبية والبلاغة، واستهدفت المقارنة في مجملها العلاقات الكلية بين الدّرسين، وقد فرضت المقارنة نفسها لأنّ مجال الدرس الأسلوبي الحديث يتداخل مع الدرس البلاغي القديم، حيث يقع الأسلوب وما يتعلّق به من مفاهيم في منطقة التجاذب بين الدّرسين، ومن فرط هذا التجاذب أرسلت (جماعة مو) (groupe μ) مقولتها المشهورة: البلاغة هي أسلوبية القدامى، والأسلوبية هي بلاغة المحدثين.

لقد كان لجمع هذين المجالين اللّذين يدرسان الأسلوب آثار على التحليل الأسلوبي، وعلى الاتجاهات الأسلوبية، خاصّة على مستوى المفاهيم، حيث حفلت الدّراسات الأسلوبية الحديثة بالمقاربات التي تهدف إلى عرض تطوّر مفهوم الأسلوب؛ وانتقال مباحثه من البلاغة القديمة إلى الأسلوبية الحديث. ونهدف من خلال هذا المقال إلى رصد هذا التطوّر الحاصل في المفهوم باستخدام عملية المقارنة بين المفاهيم الأساسية الأربعة؛ الاختيار والانزياح، والبلاغة والأسلوبية. وقد اخترنا منهجا استقرائيا يقارب التراث البلاغي العربي بنتائج الدرس الأسلوبي الغربي، وينظّم هذا الاستقراء مفهوم الأسلوب المتوفر في الدرس البلاغي القديم، والدرس الأسلوب الحديث.من الأسئلة التي يسعى بحثنا إلى استجلائها، هل للمفاهيم البلاغية أثر في إثراء الدرس الأسلوبي؟ وما مدى تطوّر المفاهيم البلاغية لتأخذ مكان في مجال الأسلوبية الحديثة؟

2. بين البلاغة والأسلوبية

لقد ناقش دارسو البلاغة والأسلوبية في العصر الحديث هذه المفاهيم في شكل ثنائية، حيث قابلوا بين الاختيار والانزياح، ووازنوا بين البلاغة والأسلوبية، كما خصّوا كلّ مفهوم بمجال من الدّراسة، حيث جعلوا الاختيار من استنتاج اللّسانيين، والانزياح من وضع الأسلوبيين(صولة، ع. 2007، ص87.)، كما استنتجوا بأنّ أسلوبية اللّغة تعتمد على الاختيار، بينما تستند الأسلوبية الأدبية على الانزياح، (ديكرو، أ. وسشافير، ج. (د. ت)، ص167)، وفي ضوء هذه الثنائيات سيأخذ هذا المقال شكل المقارنة الجامعة للمصطلحات الأربعة، قصد تحديد الأوجه المشتركة، وتوضيح أوجه الاختلاف، ومن ثمّة نصل إلى تمييز الأسلوبية الحديثة من البلاغة القديمة من خلال التركيز على مفهومي الاختيار والعدول اللّذين يمثلان مبدأين أساسيين في تحليل الأسلوب سواء من الوجهة البلاغية، أو من الوجهة الأسلوبية، على اعتبار أنّ كلّ ثنائية تتكامل أطرافها، ولا تتضاد.

ويمكن أن نعدّ هذا مسوّغا يجعل المقارنة مشروعة، يعضدها أنّ بين المفاهيم الأربعة ارتباطا وثيقا، فمفهوم الاختيار داخل في تعريف الأسلوب الذي يخضع لفكرة الامكانات المتاحة في اللّغة، فإذا ضاقت هذه الامكانات، لاتّساع أفق الفكرة، لجأ المبدع إلى العدول يتجاوز به الضيق، ويوسّع به الامكانات، ويخرق من خلاله المطّرد، ومن ثمّة فموقع العدول من الاختيار، كموقع وجه العملة بالنسبة لوجهها الآخر، إذ كلاهما يعرّف الأسلوب في الوقت نفسه، ويبرز جوهره، لكنّ هذا التكامل قائم على التقابل، لا على التضاد، بمعنى أنّ كلّ مصطلح يضئ الآخر، ويبرز دوره في تحديد الأسلوب، فلا إبداع بدون عدول، ولا عدول بدون اختيار، غير أنّ كلّ هذا يودي بالمحلّل الأسلوبي حين لا يقدر على تبيّن الظاهرة الأسلوبية.

3. دور الاختيار في تحديد البلاغة العربية

يؤدي الاختيار في البلاغة العربية دور المقياس المتحكّم في بناء الكلام الذي يكتسب صفة البلاغة، وقد حدّد البلاغيون العرب ضوابطه، بالنّظر إلى ما يستجد في واقعهم اللّغوي، ولعل أسباب نشأة الدرس البلاغي تفسّر بعض المعايير المستحدثة من أجل تقويم اللّسان حتّى يكون الكلام موافق المقتضيات الحال، فإذا كانت نشأة

النّحو تقوّم اللّسان حتّى لا يقع في اللّحن، فإنّ نشأة البلاغة كانت لأجل تلافي الخطأ في مراعاة مقتضيات الحال، كلّ ذلك دفع بالبلاغيين كي يستنتجوا معايير تسعف المتكلّم على مراجعة كلامه.

3. 1 بين الاختيار والكلام

ربط (الجاحظ) [255ه] بين مفهوم البيان واختيار الألفاظ حيث قال: «ألا ترى أنّ الله- تبارك وتعالى- لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر. والنّاس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلاّ في موضع الانتقام. والعامة، وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال.»(الجاحظ،ع. (د.ت)، ج01، ص41).

وممّا سبق يمكن أن نستنتج أنّ مقارنة (الجاحظ) بين الاستعمال القرآني واستعمال العامّة والخاصّة، يبيّن أنّ هناك خللا في اختيار الكلمات لديهم بسبب، تغيّر دلالة اللفظة على لسانهم، ما يوقعهم في الخطأ الذي يبرزه الاختيار القرآني الذي ينتقي الكلمة المناسبة للسياق، ومن ثمّة فإنّ اختيار اللّفظ الذي يخدم غاية بيانية يخضع لخصائص دلالية وسياقية ترشحها لتأخذ مكانها في التركيب، هو ما يجعل عملية الاختيار اللّسانية أساسا مستندة على عملية الاختيار البلاغية، وكأنّ الجاحظ بهذا يركّز على كفاءة المتكلّم في إدراك السياقات المحيطة باللّغة، فإذا ما ترسخت عنده هذه الميزة ارتقى بكلامه ليؤدي وظيفة بلاغية. وهذه طريقة (الجاحظ) في مناقشة قضايا البلاغة، فغالبا ما يستخلص الظاهرة من الواقع اللّغوي، وهذا الاتّجاه أسهم في تحديد الفصاحة التي تضبط الواقع اللّغوي، فينتج عن ذلك اختيار بلاغي بسبب موافقته مقتضيات الكلام. كما يوظّف الجاحظ الاختيار القرآني باعتباره المنوال الذي يجب على الألسنة اتّباعه، ولو تتبعنا النّصوص التي ناقش فيها الواقع اللّغوي في زمنه لوجدنا أنّ هناك ضوابط أخرى على المتكلّم أن يعود إليها في تقويم لسانه، (صمود، ح. (1981)، ص201-218)، ويمثّل هذا الاتّجاه الذي من خصائص الاستشهاد بالأسلوب القرآني في اختيار الكلمات، وتخصيصها بدلالات مضبوطة مقارنة بما يقترب منها من الكلمات، تحليلا قائما على المقارنة، نتج عنه بحوث توضّح الاختيار البلاغي الذي أسس له الأسلوب القرآني، وازدهر في كتب تفسير القرآن الكريم، وجمعت نتائجه في كتب علوم القرآن(الزركشي، م.(1957)، ج03، ص257).

أمّا أبو هلال العسكري[ت:395ه] فقد جَعل مدار البلاغة العربيةحول الاختيار لأنّه يمثّل العملية الإبداعية التي تتبعها كلّ العمليات الأخرى، كالجمع والتأليف، وقد صيّره أصعب هذه العمليات، فالبلاغة قائمة على تخيّر اللّفظ،:«وتخيّره أصعب من جمعه، وتأليفه»(العسكري، أ.(1419ه)، ص23)،وأُرجح أنّ (أبا هلال العسكري) عندما استخدم كلمة(التّخير) فإنّه يصف العملية الابداعية القائمة على الاختيار، والمبالغة فيه، ففيها إلحاح على مراجعة الكلام المختار، ولعلّ هذا نَبَع من رؤيته إلى البلاغة بأنّها صناعة، فالصناعة تقتضي كلّ هذا الجهد من المراجعة، والمبالغة في الاختيار.وتتسع دلالة التّخيّر لتشير إلى مفهوم الفصاحة لأنّ العملية التي يقوم بها المبدع قد رسمت حدودها شروط الفصاحة سواء على مستوى المفردة أو الجملة، ذلك أنّ مفهومي البلاغة والفصاحة يصفان العملية الإبداعية بالتعريف السلبي الذي لا تحّدد فيه الكلمات الفصيحة التي يختار منها المتكلّم إنّما تحدّد الصفات التي تنفي صفة الفصاحة على الكلمة، وبهذا فكلّ الكلام العربي فصيح باستثناء بعضه.

وعُرّفت البلاغة أيضا بأنّها اختيار الكلام، (الخفاجي، ا. (1982)، ص52)، وفصاحته ناتجة عن اختيار اللّفظة، لتوفر صفات مشترطة ضمنا عن طريق السلب،(الخفاجي، ا. (1982)، ص84)، ومن ثمّة عمد

البلاغيون إلى الموازنة بين البلاغة والفصاحة ليحدّدوا مجال كلّ مفهوم، فجعلوا البلاغة مختصّة أكثر بالمعنى، بينما الفصاحة مختصّة بالألفاظ، وعليه تكون الفصاحة موضّحة لكيفية الاختيار من مواد اللّغة دون وصف للعملية التعليق التي يصفها مفهوم البلاغة. وعليه ترتبط الفصاحة أكثر باللّغة وفقهها، بينما ترتبط البلاغة بالنحو وقوانينه. وتكون الخطبة بليغة إذا روعي فيها تخيّر اللفظ.(العسكري، أ. (1419ه)، ص58)، لأنّ تخيّره شرط من شروط الكلام البليغ.(العسكري، أ. (1419ه)، ص55)، وهو أن يبدل لفظ بلفظ مما يوجب التئام الكلام،(العسكري، أ. (1419ه)، ص141)، فالاختيار داخل في إبداع الكلام البليغ الذي أحسن صفاته الالتئام والتناسب.

3. 2 الاختيار وعلاقته بالمتكلّم

وللاختيار صلة بالمتكلّم مثلما له بالكلام، وهو ما نستنتجه من قول (ابن سنان الخفاجي)[ت:466ه]: «أمّا ناظم الكلام فقادر على اختيار موضوعه غير محظور عليه تأليف ما يؤثره منه فمتى عدل عن ذلك جهلا أو تسمحاً توجه الإنكار واللوم عليه وكان أهلاً له وجديراً به»،(الخفاجي، ا. (1982)، ص95)؛ فإنّ تأليف الكلام راجع إلى ميول المبدع المتحكم في اختياره، حيث يسلّطه على امكانات اللّغة، ذلك أنّ الكلمات لا تظهر في سلسلة الكلام إلاّ بتوخ من المتكلّم.

ويشرح (ابن سنان الخفاجي) كيف يختار المتكلّم من ألفاظ اللّغة، وهي من مسائل البلاغة التي ناقشها بلاغيون قبله، الخاصة بنقل(ترجمة) العبارات التي تتضمّن الاستعارة، كأن تنقل الاستعارة من السريانية إلى العربية، فيرى أنّ اللّغة العربية تتميّز بسعة في امكانيات التي تتيح الاختيار للمترجم، بل تزداد الصورة وضوحا وجمالا أكثر ممّا كانت في لغتها الأصلية، فيقول:«أما السّعة فالأمر فيها أيضا واضح لأنّ النّاظم أو النّاثر إذا حظر عليه موضع إيراد لفظة وكانت اللّغة التي ينسج منها ذات ألفاظ كثيرة تقع موقع تلك اللفظة في المعنى أخذ ما يليق بالموضع من غير عنت، ولا مشقة وهذا غير ممكن لولا السعة في كثرة الأسماء للمسمى الواحد، وتلك فائدة حاصلة بلا خلاف»»،(الخفاجي، ا. (1982)، ص51).

وما يمكن استنتاجه من هذا القول أنّ توفر الاختيارات التي يدركها المتكلّم في اللّغة تظهر بجلاء عند مقارنتها بلغة أخرى، وتُبرز المفاضلة بين الألفاظ والعبارات مفهوم الاختيار في عملية الترجمة لأنّ المتكلّم يقارن بين المعاني، فيجتهد ليجد الألفاظ الحاملة للمعاني المشتركة بين اللّغتين، فما بالك بترجمة الاستعارة التي تُبتدع من اختيار الألفاظ التي تخالف في الغالب الوضع اللّغوي. ويبدو أنّ الأسلوبيين قد ناقشوا في العصر الحديث مثل هذا القضية عند المقارنة بين اللّغات في عملية الترجمة، لكنّهم بيّنوا خصائص كلّ لغة، دون الإشارة إلى كثرة الاختيارات في لغة دون أخرى، والبيّن أنّ (ابن سنان الخفاجي) أثار الموضوع الذي ناقشه (الجاحظ)، وهو ترجمة الشّعر؛ لكن من وجهة نظر المتكلّم.(الجاحظ، ع. (1424ه)، ج01، ص53.)

ويمكن أن نستنتج من كلام (العلوي)[ت:745ه] أنّ مفهوم الاختيار في البلاغة العربية قد ارتبط بمفاهيم الفصاحة والبلاغة والبيان في المستويات الثلاثة التي درستها هذه المفاهيم، وهي مستوى الحرف والكلمة والجملة، فقد ذكر (العلوي)[ت:745ه]في كتابه: الطراز أنّ العملية الإبداعية عملية صناعية تشبه عمل صانع الجواهر، حيث قال :«صار تأليف الألفاظ والكلم المفردة في إفادتهما للفصاحة بمنزلة تأليف العقد وانتظامه، فلا بد في ذلك من مراعاة أمور ثلاثة:أولها:اختيار الكلم المفردة كما فصلناه من قبل،كاختيار مفردات اللآلئ وانتقائها في حسن جوهرها وصورتها. وثانيها: نظم كل كلمة مع ما يشاكلها أو يماثلها كما يحسن ذلك في تركيب العقد»(العلوي، ي. (1423ه)، ج01، ص65.)

3. 3 الاختيار من المفهوم إلى الإجراء

حَكّم البلاغيون مفهوم الاختيار في الموازنات بين المقطّعات الشعرية، فقد ذكر (عبد القاهر الجرجاني)[ت:471ه] أنّ التضاد بين القطعتين مردّه إلى اختيار النّهار وقتا للزيارة في الأولى، والليّل وقتا للزيارة في الثانية، وأنّ الأسلوب في المقطّعتين مبني على هذا الاختيار وما يترتب عليه بالمقابل من كلمات تتناسب في بناء الأبيات، فذكر البدر يناسبه اختيار الليّل، وذكر الشمس يناسبه النّهار.(الجرجاني، ع. (د. ت)، ص314).

وقد أقام النّقاد موازناتهم الشعرية على وصف أخذ من مفهوم الاختيار، فقد ذكر عبد العزيز الجرجاني[ت:392ه]أنّ قصيدة المتنبي في وصف الحمى كلّها مختارة؛ لا يعلم لأحد في معناها مثله، (الجرجاني، ع. (1966)، ص121.)، ولمفهوم الاختيار حضور في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي[ت:421ه]،ففي توضيحه لشروط المختارات الشعرية، ذكر أنّ الشعر تؤهله علاقة اللفظ بالمعنى في تأليف مخصوص، فإذا اختير اللفظ المناسب للمعنى كان الشعر أولى بالانتخاب، حيث قال: «والكشف عن قناع المعنى بلفظ هو في الاختيار أولى، حتّى يطابق المعنى اللفظ، ويسابق فيه الفهم السمع»(المرزوقي، أ. (1991)، ج01، ص06.)، وعلى هذا يكتسب مفهوم الاختيار صفة الإجراء في تحليل التراكيب اللّغوية لكفاءته في إبراز الإمكانات المحتملة الغائبة التي دلّ عليه التركيب المستخدم، ونجد ذلك واضحا عند السّكاكي[ت:626ه]في تحليله للمتشابه(السّكاكي، ي. (1987)، ص588).

4. الانزياح وأثره في تحديد البلاغة العربية

أمّا الانزياح(العدول) في البلاغة العربية فقد ارتبط بالمجاز والالتفات، والأساليب التي تمثّل مخالفة، وخروجا عن المطّرد ، سواء أكان هذا المطّرد اللّغة، أو سياق النّص، والظاهر أنّ مفهوم العدول(الانزياح) قد شاع استعماله عند البلاغيين لارتباطه بالعملية الإبداعية، في وجهها المخالف للمطّرد، خاصّة الشّعر ، فقد عرّف (عبد القاهر الجرجاني)[ت:471ه] المجاز بقوله:«المجاز مَفْعَلٌ من جازَ الشيءَ يَجُوزه، إذا تعدَّاه، وإذا عُدل باللفظ عما يوجبه أصل اللّغة، وُصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعَه الأصليَّ»(الجرجاني، ع.(د.ت)، ص395).

والبيّن من خلال هذا القول أنّ العدول في تصوّر البلاغيين مرتبط بظواهر أسلوبية حاضرة في النّص مثّلت بصفة أو أخرى نوعا من الخروج مقارنة للاستعمال الغالب ، ومن ثمّة فالعدول يمثّل جزء الاختيار الذي يمثّل العموم، وهذا العموم هو الأصل الذي يقاس إليه الخروج، ومن ثمّة يكون وجود العدول في التعريف البلاغي مقترنا بوجود الاختيار، وهذا ما يستدعي تلك المقارنة التي أجراها البلاغيون القدامى بين الفصاحة والبلاغة، حيث صيّروا من البلاغة جزء من الفصاحة، ذلك أنّ دائرة الفصاحة أعم من دائرة البلاغة، فكلّ بليغ فصيح، وليس كلّ فصيح بليغا، ومن ثمّة يتواجد مفهوم العدول في دائرة البلاغة، بينما يتواجد مفهوم الاختيار في الفصاحة، فإذا كان مجال الاختيار ترصده الفصاحة، وكان من الكلام الفصيح ما كثر استعماله، أفلا يكون الاختيار بطريقة ما محدّدا للفصاحة؟

والملاحظ أنّ البلاغيين في تحليلهم للأسلوب الالتفات، عمدوا إلى استخدام مفهوم العدول، حيث عدّوا الالتفات عدولا عن النسق السابق،ونجد ذلك في تحليلهم لكثير من الآيات القرآنية التي تضمنت تراكيبها التفاتا، فقد أورد العلوي في تحليل قوله تعالى:﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[النمل:87] قوله: «إيثار الماضي والعدول إليه دال على مبالغة في الثبوت والاستقرار» (العلوي، ي. (1423ه)، ج02، ص75)

ويؤدي السياق دورا أساسيا في إبراز مفهوم العدول المرتبط بالظاهرة الأسلوبية التي يحلّلها البلاغيون، حيث نجد ابن الأثير[ت:637ه] يبرز دور حروف الجر في التراكيب القرآنية عند تحليله لقوله تعالى:﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً

مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:60]،حيث قال:«إنّما عدل عن اللام إلى«في»في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام؛ لأن«في»للوعاء، فنبه على أنّهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء، وأن يجعلوا مظنة لها، وذلك لما في فك الرقاب وفي الغرم من التخلص...وسياق الكلام أن يقال:وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل، فلما جيء ب(في) ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه» (ابن الأثير، ن. (د.ت)، ج02، ص49، 50)

وقد يجاور مفهوم الاختيار مفهوم العدول في تحليلات البلاغيين، وهو ما يؤكّد تلازم الظاهرة الأسلوبية من وجهة الاختيار والعدول في تحليل الأسلوب الكامن في خصائص التراكيب. ونجد المفهومين مضمنين في تعريف علم المعاني، حيث درج البلاغيون على تعريفه بقولهم: «علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره.»(السكاكي، ي. (1987)، ص61)، .»،وفصّلوا جزئيات هذا التعريف، موضّحين كلّ جزئية بما يناسبها من أمثلة، ثمّ أوردوا الحالات التي يخرج فيها الكلام عن مقتضى الحال، ما يدفع بنا إلى استنتاج مفاده أنّ الكلام العربي الموافق للتعريف استوفى شروط الفصاحة والبلاغة فهو يتميّز بخاصية الاختيار،أمّا النوع الثاني من الكلام فإنّه لم يستوف الشروط فهو يتميّز بالعدول.

وقد اطّردت هذه الملاحظ في علوم البلاغة الثلاثة، ما يدفع بنا إلى أن نستنتج أنّ التحليلات البلاغية خلقت بهذا الإجراء المبني على مفهومي الاختيار والعدول(الانزياح) المرتبطين بالمتكلّم ديناميكية في تحليل التراكيب البلاغية، لأنّ المحلّل يتخيّل المقامات المتنوّعة للكلام العربي،ما يجعله في طلب دائم للخصائص الأسلوبية التي بني عليها الكلام،وهو ما يجعل تلقي النّصوص يتجدّد بحسب المتلقي. ولعلّ هذا ما دفع تمّام حسّان إلى القول بأنّ البلاغة العربية غير مكتملة الاستقراء.(حسّان، ت.(2000)، ص236).

5. الاختيار والانزياح عند الأسلوبيين العرب

التفت الأسلوبيون العرب على اختلاف خلفياتهم الأسلوبية والنقدية إلى التراث البلاغي، مقتدين بالأسلوبيين الغربيين في تناول تراثهم البلاغي تارة، أو معارضين لهم تارة أخرى، وانطلقوا في قراءتهم للتراث البلاغي العربي يحذوهم الأمل كي يجدوا مفاهيم الأسلوبية في البلاغة العربية. وقد اتّجه انتباههم إلى مفهوم الأسلوب يثبتون توفره عند البلاغيين، و واستخدامه عند النّقاد، وقد كان تركيزهم على تحديدات البلاغة والفصاحة على اعتبار أنّ هذين المفهومين يمثلان لدى القدامى أساس ضبط علم البلاغة. فمنهم من يرى أنّه يمكن استنتاج تعريف الاختيار الأسلوبي من تحديد القدامى للفصاحة، فمحمد عبد المطلب[1937-...] يرى أنّ« وطبيعة هذا الاختيار محكومة عند النقاد القدامى بسيطرة المقاصد الواعية؛ إذ إنّ العفوية تتأتى من المستوى النّفعي الذي يتمّ فيه إحداث الحدث اللّغوي من خلال مفردات تختلف في تكوينها الصوتي وتكوينها الدلالي، في حين أنّه في المستوى الجمالي أو الإبداعي يتمّ الاختيار بين مفردات قد تختلف في تكوينها الصوتي، ولكنّها في تكوينها الدلالي.» (عبد المطلب، م. (1995)، ص101).

وقد تواترت ملاحظات الدّارسين على أنّ القدامى حقّقوا مفهوم الاختيار في أُطر متنوعة، فقد أوضح محمد عبد المطلب ذلك بقوله:« وقد توفر نقادنا القدامى على دراسة اللفظة بحسبانها الإطار الدلالي الضيق الذي يتكوّن منه التركيب، واتجهت الدراسة إلى مستويات متعدّدة منها ما يتّصل بالوظيفة، ومنها ما يتّصل بالدلالة، ومنها ما يتّصل النّاحية الصوتية، ومنها ما يتّصل بالطبيعة السياقية، وكلّ ذلك يتجاوز مجرد كون اللفظة وحدة لغوية، إلى كونها أداة فنية لها خواصّها التي تتمايز في أجناس الكلام من شعر ونثر، وهذه الخواص محكومة بعملية الاختيار التي يوقعها المبدع على مخزونه اللّغوي.»(عبد المطلب، م.(1995)، ص16).

لقد قارن (محمد عبد المطلب) بين البناء الاستعاري والبناء التشبيهي لما يؤديان من دور في إيضاح كيفية تلقي المعنى ، حيث قال :«والاستعارة إحدى البنى البلاغية التي عني بها عبد القاهر عناية مميزة، والتعامل معها يقدّم لنا ناتجا لغويا من الطّراز الأوّل(...) إذ هي بطبيعة تكوينها تحتاج إلى قدرات في المبدع توازي مواصفات المتلقي، وبينهما يجري الأسلوب أو الأساليب، مشحونا بهذه الطاقة العدولية الهائلة.»(عبد المطلب، م.(1995)، ص46)

إنّ فكرة المقارنة بين مفهوم العدول(الانزياح) في البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة أو غيرها من المجالات المعرفية الحديثة متوفرة لدى الباحثين المحدثين، وذلك راجع إلى مقاصد كلّ باحث، سواء كانت تهدف إلى إثبات وجود المفهوم في التراث، أو تقريب المفهوم بين القديم والحديث باتّباع طرق الاستنتاج التي تعتمد سجّلات تطبيق هذا المفهوم، فمثلا نجد (عبد الله صولة) [ت:2009] يقول في دراسته للحجاج في البلاغة العربية:« قال السكاكي في تعريف البلاغة هي إخراج الكلام في صورة مخصوصة دون أخرى وعدول بالكلام من صورة إلى صورة أخرى تطابق مقتضى الحال أو الاعتبار المناسب. إنّ كلام السكاكي السابق إذ حدّد لنا كيف يطابق الكلام مقتضى الحال قدّم لنا ضمنا المعيار(La norme) الذي تقاس إليه الصّورة المخصوصة أي العدول(L'écart).»(صولة، ع. (2011)، ص85)

لقد حصر (عبد الله صولة) أنواع العدول(الانزياح) في البلاغة العربية في قسمين هما الكمي والكيفي، حيث قال: «يمكن أن نجعل هذا العدول على ضربين: نوعي وكمي. سواء في ذلك بتغيير نوع الكلام قياسا على معيار معيّن، وإمّا كميّا وذلك بتغيير كمّ الكلام بأن تضاف إلى الصورة المعيارية(...) عناصر لغوية تؤكّد أو تخصّص»صولة، ع. (2011)، ص86)

ومن الدّارسين من ربط مفهوم الاختيار بمجموعة من المصطلحات البلاغية، كما نجده عند (حمادي صمود) [1947-] لمّا جعل (المجازات)التي رصدها أبو عبيدة معمر بن المثنى في(مجاز القرآن)مرتبطة بمفهوم الاختيار، حيث قال: «إنّ جملة المجازات المذكورة، وهي عوارض تحدث في التركيب، أدرجت في وقت متأخر، ضمن قسم البلاغة المخصص للمعاني مما يدلّ على أنّها طرق مخصوصة في القول وإمكانية من إمكانيات التعبير، وما دامت كذلك فلا بد أن ترتبط بمفهوم الاختيار القائم على المفاضلة بين مسالك التعبير وسبله حسب قصد المتكلّم من كلامه.»(صمود، ح.(1981)، ص91).

وعليه فإنّه كلّما طرح مفهوم العدول للمناقشة كان لمفهوم الاختيار دور في تحديده، ذلك أنّه يمثّل الأصل الذي تقاس عليه ظواهر الأسلوب الممثلة للعدول، وقد أوضّح الدّارسون هذه العلاقة بطرق متعدّدة، حيث ذكر (سعد مصلوح) [1943-] أنّ النّص المفارق يقتضي نصّا نمطا، فالنّص المفارق يمثل العدول، بينما النّص النمط يمثّله الاختيار.(مصلوح، س. (1993)، ص23).

في حين اتخذت البلاغة العربية من لفظة العدول اصطلاحا يعبّر عن التراكيب المخالفة للمستعمل المطّرد، واجتهد الدّارسون في المقاربة بين رؤية البلاغيين العرب ورؤية الأسلوبيين لظاهرة العدول، وأوّل ما يطالعنا في هذه المقاربة تعدّد المصطلح في الرؤيتين، فكما عبّر الأسلوبيون المحدثون عن ظاهرة العدول الأسلوبية بمصطلحات متنوعة ازدان التراث البلاغي العربي بمصطلحات حملت في طيّاتها وصفا لهذه الظاهرة الأسلوبية لقد رصد (عبد السلام المسدي) [1945-] في كتابه «الأسلوب والأسلوبية» تعدّد مصطلح الانزياح مستنتجا الأبعاد الأصولية لهذا التعدّد، والخلفيات المعرفية التي أسهمت في ايجاد كلّ مصطلح، حيث قال:«ولا شك أنّ تتبع ما عرفته الأسلوبية واللّسانيات من تأرجح في التدليل على هذا الواقع اللّغوي الذي يعدّ بمثابة الأصل ثم على عملية الخروج عنه لواقع طارئ من شأنه أن يعيننا على تدبّر أبعاده الدلالية والأصولية» (المسدي، ع. (2006)، ص78)،ثم أورد ثبتا لمجموع المصطلحات المستخدمة في وصف مستوى الاستعمال،

وأخرى استخدمت في وصف مستوى الخروج عن هذا الاستعمال.(المسدي، ع. (2006)، ص78، 79، 80)، وفي السياق نفسه يمكننا أن نشير إلى أنّ الأسلوبية الحديثة وقعت في إشكالية تحديد المعيار المعدول عنه، فمرة عَزته إلى الاستعمال، ومرّة عزته إلى السياق الأسلوبي.(المسدي، ع. (2006)، ص82).

وما يمكن أن نستنتجه من تعدّد المصطلح في وصف الظاهرة الواحدة، سواء ما يخص الاختيار أو العدول هو أنّ هذه الإشكالية متعدّدة الجهات، فإذا نظرنا في المصطلح الغربي أرجعنا تعدّده إلى اختلاف وجهات النظر عند الدّارسين من حيث وصف الظاهرة، ويمكن أن يكون هذا التعدّد استغراقا للظاهرة الأسلوبية. وإذا رجعنا إلى المصطلح العربي أرجعنا تعدّده إلى اختلاف في قدرة كلّ دارس على استيعاب الظاهرة الأسلوبية، وقدرته على توظيف ما توصّل إليه الدّارسون الغربيون من نتائج، وتحكمه في ترجمة هذه المفاهيم، وقد مثّل وضع المصطلح في النقد العربي إشكالية لم يحسم أمرها إلى حد الآن.كذلك وقعت البلاغة في حيرة تحديد المعيار الذي يحدّد في ضوئه العدول حيث لجأت في آخر المطاف إلى المثالية في الاستعمال التي حدّدها النحويون الذي يفترض مستويين من الكلام: المستوى المثالي، والمستوى المنحرف.(عبد المطلب، م.(1994)، ص269)

وفي التراث البلاغي مصطلحات متعدّدة تصف الظواهر الأسلوبية المعتمدة على خاصية الاختيار، فالاختيار هو المطرد والغالب والكثير، في حين أنّ الانحراف يبتعد عن طرق التعبير الشائعة، وربّما اقترب من القليل وحتّى الشاذ، (عيّاد، ش.(1988)، ص78)، ولم تعدّ الأسلوبية الحديثة الأسلوب في كلّ الاختيارات إنّما ميّزت بين نوعين من الاختيارات، اختيار محكوم بسياق المقام، واختيار تتحكّم فيه مقتضيات التعبير(مصلوح، س. (1992)، ص38)،وكعادته، لم يفوّت (سعد مصلوح) الفرصة كي يجري مقارنة بين الاختيار بالمفهوم الأسلوبي، والاختيار بالمفهوم البلاغي، وذلك عندما وصف الاختيار الذي يوافق سياق المقام بأنّه اختيار أسلوبي، ووصف الاختيار الذي يعتمد على قواعد اللّغة بمفهومها الشامل الصوتية والصرفية والدلالية ونظم الجملة، بالاختيار البلاغي لأنّ كثيرا من موضوعات البلاغة داخلة فيه كالفصل والوصل، والتّقديم والتأخير، والذكر والحذف.(مصلوح، س.(1992)، ص39).،وهذا ما يؤكّد أنّ التفكير البلاغي حاضر في ذهن الدّارسين الأسلوبيين، لا ينفك يفرض تواجده بطريق السلب، فكأنّ الأسلوبية لا يمكنها أن تحدّد نفسها إلاّ ضوء البلاغة، وأنّ البلاغة أساس الأسلوبية وهي وريثها الشرعي، وتكون بذلك علاقة مفهوم الاختيار البلاغي والأسلوبي علاقة الجزء بالكلّ، فالمفهوم البلاغي هو مفهوم إمكانات اللّغة المفتوحة وغير المحدودة، أمّا المفهوم الأسلوبي فهو الكلام المرتبط بالإنجاز الفردي المرتبط بقدر الفرد على استيعاب اللّغة وتمثّلها.

وللنّحو حضور بعدّة أوجه في تحديد الأسلوبية الحديثة لمفهوم الأسلوب باعتبار باختيار المؤلف من امكانات اللّغة المعجمية والتركيبية، حيث ذكر (صلاح فضل) [1938-] في إيضاحه لإسهام النظرية النّحوية التوليدية في النظرية الأسلوبية الحديثة في مستوياتها، حيث ذكر أنّ الأسلوب يعدّ نتيجة لاختيار المؤّلف من مختلف التحوّلات الاختيارية الممكنة.(فضل، ص.(1998)، ص114).

وهذا ما يؤكّد اعتماد الأسلوبية الحديثة على علوم اللّغة في تحديد المفاهيم الإجرائية، حيث يغدو اختيار المؤّلف سهل الوصف، كما يمكن لأي محلّل أسلوبي أن يقوم بتحليل التراكيب ومن ثمّة معرفة الطرق التي سلكها المؤلف في نسج النّص الأدبي، وهو ما يحيلنا إلى اعتماد التحليل البلاغي بالأساس على التحليل النّحوي مع الفارق الدقيق بينهما، إذ غالبا ما أوضح البلاغيون هذه العلاقة بين العلمين، فإذا كانت تهدف إلى دراسة خصائص التراكيب فإنّ التحليل النّحوي هو قاعدة هذا الاستنتاج لأنّ يدرس مجموع الاحتمالات التي يعرضها التركيب مع التفرقة الدلالة بينها.

6. الاختيار والانزياح في الأسلوبية الغربية

أمّا الأسلوبيون الغربيون في العصر الحديث؛ فقد اتّجهوا إلى تحليل الفروق الدقيقة بين مفهوم الاختيار والانزياح، لأجل توظيفهما في التحليل الأسلوبي الذي يطمح إلى استنتاج خصائص الظاهرة الأسلوبية من الوجهة اللّغوية، حيث جعلوا الاختيار من إنتاج اللّسانيين، بينما عزوا العدول إلى الأسلوبيين، ولعلّ هذه التفرقة القائمة على التأصيل، راجع إلى طبيعة المفهومين، فالاختيار متوفر بكثرة في الكلام القائم على مجرد الاتّصال، بينما يتوفّر الكلام الفنّي على مفهوم الانزياح. والفكرة نفسها توفرت في البلاغة العربية، فقد نظرت إلى المجاز باعتباره وجها من وجوه الانزياح على أنّه لا يستقيم إلاّ إذا توفر السياق القائم على التعبير القائم على الاختيار الذي يمثّل اللّغة في صورتها المثالية. ومن ثمّة يرى أصحاب هذا التوجّه أنّ النّقد الأسلوبي قام على فكرة مفادها أنّ كلّ اختيار أسلوبي يحمل في طيّاته جميع الخيارات المحتملة كامنة في التعبير، وأنّ الكاتب كان مترددا بينها، وبعملية عكسية يكتشفها القارئ، ويقارن بينها ليشعر بأسلوب الكاتب. (GUIRAUD, 1978,p123)

ويبدو أنّ الاختيار والانزياح لا يتضحان إلاّ اذا أجريت بينهما مقارنة، وهو ما دأب عليه كثير من الأسلوبيين حيث يرون أنّ الانزياح مرتبط بالاختيار الذي يعدّ معيارا لتحقّقه، فكلّ متكلّم للّغة ينحو في كثير من كلامه إلى الخروج عن الوضع المثالي للّغة المتمثل في الاستعمالات السابقة، وهذا الخروج يمثّل الانزياح الذي غالبا ما تكون نسبته قليلة إذا ما قيس بالاختيار. ويستند بعض اللّسانيين على المقابلة بين الكلام والنّص، والجنس الأدبي؛ ليحدّدوا مفهوم الانزياح، ففي الفرضية السوسيرية كلّ نصّ ناتج عن القول يمثّل إبداعا فرديا، فالأسلوب فيه يحدّد بالاعتماد على معيار، بأنّه انزياح عن مستوى من الكلام غير موسوم، ومستوحى من استعمال متوسط وبسيط.(DUBOIS, 1994, p449)، وما يمكن أن نستنتجه من هذا التعريف أنّ الانزياح له ارتباط بمفهوم النّص، والجنس الأدبي، وهو ما يقارب التّصور البلاغي للانزياح الذي يرى أنّ خصائص الأسلوب في الأدب كامنة في انزياح لغته.

ومن الأجناس الأدبية التي ربطها الدّارسون في العصر الحديث بمفهوم الانزياح الشعر، فقد خصّه (جون كوهن) [1919 -1994] بكتاب عنوانه(بنية اللّغة الشعرية)، فقد عرّف الشعرية بأنّها أسلوبية الأجناس مستندا على تعريف الشعر بأنّه انزياح،(COHEN, 1966 ,p14)، وأكثر انزياحاته الصورة، (Genette, 1969 , p139)،واستنتج (جيرار جنيت)[1930-2018] مقوله مفادها أنّ الانزياح هو جوهر الشعر،(Genette, 1969 , p12)، وقد خلص في مناقشته لمفهوم الانزياح في علاقته إلى تحديد الصورة بأنّها انزياح حاصل في علاقة الدال والمدلول، ما يحدث فضاء داخليا في اللّغة(Genette, 1966, p209).

مثّلت البلاغة ومصطلحاتها المختلفة وخلفياتهم المعرفية أساسا لتحديد الانزياح والاختيار، ذلك أنّ معظم ما افترضوه بني على رصيد الدرس البلاغي الذي ناقش ظواهر الأسلوب؛ فمن استنتاجاتهم حول موقف البلاغة من الصورة؛ قولهم إنّ البلاغة هي نظام الصور،(Genette, 1966, p208) وإنّ لها نظرية تنظّم بناء الصورة،(Genette, 1966, p212)، وهو ما يشعرنا أنّهم يربطون هذه المفاهيم بما استجد لديهم من تغيّر في زاوية النّظر إلى الأشكال البلاغية، وذلك تحت تأثير اللّسانيات، فعملهم هذا يمكننا أن ندرجه ضمن قراءتهم للتراث البلاغي، ولعل أهم دليل نسوقه في هذا السياق تضمّن تعريفاتهم للانزياح على الخلفيات البلاغية.

إذا كان تركيز (جون كوهن) على اللّغة الشعرية باستخدام مفهومي الاختيار والانزياح فإنّ ذلك أفضى به إلى تعريف الشعرية وربطها بالأسلوبية، وتحويل الاختيار والتحويل إلى إجراء يحلّل الكمي والكيفي في النصوص الشعرية؛ «ولتعريف من هذا القبيل مزية منهاجية معتبرة، إذ يسمح للشعرية بالتكوّن كعلم كمّي. ففي مفهوم الانزياح بتأكّد لقاءٌ هامّ بين الأسلوبية والإحصاء. ولكون الأسلوبية هي علم الانزياحات اللّغوية، والإحصاء علم الانزياحات عامّة، فمن الجائز تطبيق نتائج الإحصاء على الأسلوبية، لتصبح الواقعة الشعرية وقتها قابلة

للقياس، إذ تبرز كمتوسط الانزياحات التي تقدمها اللّغة الشعرية بالنّظر إلى النّثر. فالأسلوب، كما قال بيير كيرو: انزياح يعرف كمّيا القياس إلى معيار.» (كوهن، ج. (1986)، ص16).

7. الانزياح والمجاز

استنتج (شارل بالي)[1865-1947] من تحليله للقيمة الجمالية للصورة أنّ التعبير بالصورة هو نتاج الخطأ والتشويه، أو الحاجة، فهو يرى أنّ كلاّ من الاستعارة والكناية، والمجاز المرسل مأخوذ من تشبيه بسيط،(BALLY, 1949 , p189)، وما يمكن أن نبديه إزاء هذا الاستنتاج هو أنّ هذه المصطلحات البلاغية ما زالت حاملة للسمعة السيئة التي واكبت البلاغة الغربية منذ نشأتها، (مايير، م. (2021)، ص09).وأنّ مؤسس الأسلوبية الحديثة يعطي للصورة جانبها الجمالية من خلال تحليل الكلام بردّه إلى أصوله، فالأصل الطبيعي يمثّل معيارا يتحكّم في الدلالة النفسية والاجتماعية للعبارة، فعندما نقول: إنّه ثعلب نكون قد نقلنا من عناصر الطبيعة لكنّ الادعاء، والتغيير في الدلالة بفعل الشحن العاطفي يحاولان العبارة إلى الدلالة المجازية؛ استطاع(شارل بالي) باستخدام فكرة الأصل الطبيعي للصورة، واستخدام ما يلحق العقل البشري من تشوّهات عندما يسعى إلى بناء المفاهيم المجردة، أن يثبت مصدر الاستعارة، (BALLY, 1949, P187)لذلك يعتبر (شارل بالي) الاستعارة ناتجة عن التشبيه الذي ينتج بدوره من المقارنة بين المفهوم المجرد والعنصر الطبيعي، ومن ثمّة تكون الصورة الكامنة في العبارة المشحونة بعواطف المتكلّم.

وهذا تحليل بلاغي للاستعارة يعتمد على ما كان شائعا عند البلاغيين القدماء، وهي أنّ الاستعارة هي تشبيه مختصر،(مورو، ف. (د.ت)، ص24)، ورغم الربط بين الاستعارة والكتابة الأدبية، إلاّ معظم الأسلوبيين نظروا إلى الاستعارة بأنّها ليست أسلوبا خاصّا بالنّصوص الأدبية بل هي متوفرة في الكلام المنطوق، ف(جول ماروزو)[1878-1964]يجعل من الاستعارة نمطا يتميّز به الأسلوب بإبراز خصائصه، وكما تتوفر في الأدب، تتوفر في الكلام المنطوق،(MAROUZEAU, 1966, p107,108)، وهذا ما يجعله يربط بين أسلوبية أستاذه التي توصف بأنّها لغوية، والتي تدرس الشحن في العبارة فهي تعبيرية، وبين الأسلوبية التي يدعو إليها التي تسمّى بالأسلوبية الأدبية، وهذا الربط واضح المعالم من حيث اعترافه بأنّ الاستعارة متوفرة في الكلام المنطوق.

8.الاختيار الأسلوبي

ومن بين الدّارسين الأسلوبيين الغربيين الذين اهتموا بالاختيار باعتباره حقلا تدرسه الأسلوبية (ماروزو) أحد تلاميذ(شارل بالي)، فهو يعرّفه بقوله:« لكي نعبّر عن فكرنا نختار في ما تسمح به قواعد اللّغة، والامكانات التعبيرية التي تتفق مع شخصيتنا، وما يمليه السياق الذي نواجهه، زيادةعلى ذلك يتحكّم فينا الأثر الذي نريد أن نحدثه؛ وكلّ هذا داخل في قضايا الأسلوب. ودراسة هذه الامكانات التعبيرية تمثّل مجال الدراسة الأسلوبية.»(MAROUZEAU, 1921, p55)

وفي سياق تعريفه للأسلوب باعتباره نتاجا لمجموعة من العوامل اللّغوية وغير اللّغوية، من جهة، وبأنّه موضوعا تدرسه الأسلوبية، يجري (ماروزو) مقارنة بين أسلوب الحديث العادي في اللّغة اليومية الذي لا يخضع للتنقيح، والمراجعة، مقابلا لأسلوب الكتابة، الذي نوله الاهتمام فنعمل على مراجعته وتثقيفه، وتحسينه، ليخلص في النهاية إلى أنّ الأسلوب الذي نشعر به أكثر هو أسلوب الكتابة، ويستدرك قائلا: « ولكن قبل كل شيء بواسطة الكتابة نركّز على تنقيح أسلوبنا؛ لأنّ الكتابة تمكننا من هذه العملية واضعين في الحسبان القراء الذين يحكمون على أسلوبنا، لذلك نفكر باستمرار في أن نجعل ما نقوله واضحا بالطريقة التي نقوله بها؛ ومن ثمّة تكون الأسلوبية، على عكس التخصصات الألسنية الأخرى، مرتبطة أكثر باللغة المكتوبة وبالتالي أكثر ارتباطا بالأدب من ارتباطها بالكلام المنطوق.»(MAROUZEAU, 1921, p55 ,56)

ومما سبق نستنتج أنّ(ماروزو) رغم اعترافه بتوفر مفهوم الاختيار في اللّغة المنطوقة، إلاّ أنّه يرى الاختيار أكثر بروزا في اللّغة المكتوبة، بسبب ما توفره الكتابة من إمكانات التّصرف في عمليات الأداء اللّغوي، واستنادا على هذا يرى أنّ الأسلوبية التي تستهدف دراسة الأسلوب باعتباره اختيارا تكون أكثر إخصابا عندما تحلّل النصوص الأدبية. وما يمكن أن نستنتجه أيضا هو أنّ (ماروزو) يسعى إلى توسيع مجال الدّرس الأدبي عن طريق توسيع مفهوم الاختيار الأسلوبي وربطه بالكتابة التي تنتج الأدب؛ ومن هذا نستشف ترسبات البلاغة الغربية في تعريفات هؤلاء الأسلوبيين من أتباع (شارل بالي) رغم أنّ مستندهم كان على اللّسانيات الحديثة. وهو تراجع واضح عن مبدأ (بالي) حين استبعد اللّغة الأدبية من الدراسة الأسلوبية، وكان اختياره مبررا بالتمييز بين الدرس البلاغي القديم الذي من موضوعاته الأساسية الأسلوب.(BALLY, 1949, p229)، ومن نافلة القول إذا قلنا بأنّ الأسلوب هو الموضوعالمحوري الذي تهتم به أسلوبية (بالي)، إلاّ أنّه حدّد أسلوبا يرتبط بالكلام الفردي؛ وقد ناقش الفروق بين اللّغة المنطوقة واللّغة المكتوبة في مواطن كثيرة من كتابه(محاولات في الأسلوبية الفرنسية)، وقد خلص إلى أنّ الفرق بين اللّغتين متوفر عند المتكلّمين باللّغة، فعندما يتكلّم أحدهما بطريقة تتطابق مع المكتوب يصفونه بأنّه يتكلّم كالكتاب، (BALLY, 1949, p222)، وقد أجرى (شارل بالي) مقارنات مختلفة بين العبارة المنطوقة والعبارة المكتوبة، ليصل إلى أنّ ليس كلّ عبارة مكتوبة تنتمي بالضرورة إلى الأدب، رغم توسيع مفهوم المكتوب ليكون شاملا للأدب. وبهذا المنطق يخرج الأسلوب المتوفر في الأدب من مجال الدّرس الأسلوبي لأنّه لا يعبّر عن الإحساس الحقيقي للمتكلّم، وأنّه يختلق السياقات باستعمال التخييل، ما يجعله بعيدا عن الواقع الاجتماعي الذي يستهدفه (بالي) بالدراسة الأسلوبية،وعليه فإنّ التعريف الذي يقدّمه(ماروزو) يركّز على استخدام الفرد للإمكانات التي يقدّمها له التركيب؛ أمّا (مارسيل كريسو)[1896-1961] فإنّه يجعل من مفهوم الاختيار خاصية العمل الأدبي التي تؤهل الأعمال الأدبية كي تكون مجالا حصيا للدراسات الأسلوبية، وأنّ الاستعمال الواعي للّغة، والمقصد الجمالي منه، لا يتناقض مع أسلوبية (شارل بالي) إذا وضعنا الكتابة الأدبية ضمن إطار التواصل، ومن ثمّة تغدو مشابهة للاستخدام التلقائي للّغة(CRESSOT, 1969, p03).

ويرى بعض الدّارسين اللّسانيين أنّ الاختيار الأسلوبي يتّسع لكلّ العناصر اللّغوية المكوّنة للخطاب القابلة للتصرف الفردي أو الجماعي؛ «لا بد من البحث عن عناصر الأسلوب في كلّ المستويات اللّغوية، في مستوى النطق الثاني(التعبير) تظهر في لغة الكلام»(لبرج، ب.(2010)، ص252).

هذا إذا ما قارنّاه بالاختيار بالمفهوم اللّساني الذي غالبا ما يؤخر فيه عنصر السياق، بشكل يبرز عملية الاختيار، فقد أورد (جون دي بوا)[1920-2015] في معجم اللّسانيات أنّ اختيار المتكلّم يتمّ من بين عدّة عناصر، وبين عدّة أنواع من الجمل، أثناء النّطق، كما يختار من الوحدات اللّغوية الممكنة في إطار الجملة النموذجية، ووفقا للرسالة التي يودّ نقلها للسّامع(DUBOIS, 1994, p83).

ورغم انتماء الأسلوب إلى حقول تحاذي اللّسانيات إلاّ أنّ مؤلفي معجم اللّسانيات أوردوا له تعريفا بحيث ربطوا بينه وبين أثر لسانيات سوسير في تحديده، وتحليله. ويمكن لنا أن نستنتج علاقة للأسلوبية باللّسانيات فيما أورده (جون ديبو) في معجم اللّسانيات حيث يرى أنّ لسانيات سوسير لم تحدث انقلابا كبير في مفهوم الأسلوب المرتبط بالبلاغة الغربية القديمة، خاصّة في جهة ارتباطه بالأداء الشفوي، فقد عرّفه (كريسو) بأنّه الاختيار الذي يقوم به المتحدث في استعمالاته اللّغوية؛ سواء أكان الاختيار واعيا أو انزياحا بسيطا، فالأسلوب كامن في الانزياح بين الكلام الفردي واللّغة. ومن ثمّة يمكن استخراج لغات خاصّة تختصر هذا الانزياح(لغة أدبية، ولغة كوميدية، وغيرهما)(DUBOIS, 1994, p447).

وهو ما يؤكّد على أنّ اللّسانيين الذين أسسوا الأسلوبية، وعلى رأسهم (شارل بالي) قد حدّدوا الأسلوب انطلاقا من رؤية اللّسانية للظاهرة اللّغوية التي تتحوّل إلى أسلوب بفعل الأداء الفردي للّغة. وما يمكن أن نستنتجه من هذا التحديد للأسلوب هو أنّ الاختيار والعدول(الانزياح) يتقابلان في عدة مستويات، فإذا نُظر إلى اللّغة في علاقة بالاستخدام الفردي، حدّد الاختيار بأنّه استعمال لإمكانات اللّغة، وإذا ما قورن بين هذا الاستخدام واللّغة حدّد الأسلوب بانزياح عن اللّغة. ويرى في هذا الصدد (شارل بالي) أنّ المعيار الذي يحدّد في ضوئه الانزياح في الكلام الفردي هو السياق الاجتماعي الذي عادة ما تستخدم في المجموعة تلك العبارة. (BALLY, 1949 , p19)

9. الخاتمة

إنّ مقارنة البلاغةالقديمة بما توصلت إليه الأسلوبية على مستوى المفاهيم الإجرائية؛ تكشف عن اختلاف في الرؤية بين المجالين، فالبلاغة سعت إلى استخراج معايير الأسلوب، فكانت النتيجة اختراع القواعد التي تتحكم في إبداعه، أمّا الأسلوبية فسعت إلى الوصف الظاهرة الأسلوبية، فغلبت على نتائجها الرؤية اللّسانية للظاهرة اللّغوية التي تتحوّل إلى أسلوب، وانحازت إلى البرهنة باستخدام المفاهيم كإجراءات تطبيقية، ما أدى إلى تأسيس التحليل الأسلوبي الذي لا يفرض طريقة خاصّة في تحليل النّصوص الأدبية.هناك اختلاف بين قراءة الدّارسين العرب لتراثهم البلاغي، وقراءة الدّرسين في الغرب لتراثهم البلاغي، فالدّارسون العرب اتّجهوا إلى تقليد الغرب، فكانوا ينظرون إلى تراثهم البلاغي وقد شغلتهم نتائج الأسلوبيين الغربيين، ولا شك أنّ هذا سيؤثر في رؤيتهم للبلاغة العربية، ومن نتائج هذه الرؤية أنّهم فرضوا على التراث العربي أسلوبية تشبه الأسلوبية الغربية رغم اختلاف الخلفيات الفلسفية للإبداع الأدبي. ويمكن في الأخير أن نلخص نتائج بحثنا في النقاط الآتية:

- الاختيار والانزياح(العدول) من المفاهيم التي انتقلت من البلاغة إلى الأسلوبية الحديثة، وقد تحوّلت بهذا من المفهوم إلى الإجراء.

-وكانت اللّسانيات عاملا أساسيا في صياغة المفاهيم البلاغية لتدخل المنظومة الاصطلاحية الأسلوبية.

-ظهور الأسلوبية في القرن التاسع عشر، تحت تأثير اللسانيات، كان له أثر في علاقة البلاغة القديمة بالأسلوبية الحديثة، خاصّة على مستوى التحليل الأسلوبي حيث طبعته بالموضوعية والوصفية.

-إنّ توجّه الدّارسين الغربيين في العصر الحديث، والعرب إلى مساءلة التراث البلاغي قراءة وتحليلا كان مفروضا عليهم بفعل الأسلوب الميدان المشترك بين البلاغة القديمة والأسلوبية الحديثة.

10. قائمة المراجع

- صوله، عبد الله.(2007) **الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**. لبنان: دار الفرابي.
- صولة، عبد الله.(2011). **في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات**. تونس: مسكيلياني للنشر والتوزيع.
- ديكرو،أوزلد. سشايفر،جان ماري.(د.ت).**القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللّسان**.لبنان:المركز الثقافي العربي.
- الجاحظ، عمرو بن بحر.(د.ت).**البيان والتبيين**،لبنان: دار ومكتبة الهلال.
- صمود،حمادي.(1981)**التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس(مشروع قراءة)**. تونس:منشورات الجامعة التونسية.
- الزركشي، محمد بن عبد الله.(1957)**البرهان في علوم القرآن**. لبنان: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
- العسكري،أبو هلال.(1410ه)**الصناعتين: الشعر والنثر**.لبنان: المكتبة العصرية.
- الخفاجي،ابن سنان.(1982)**سر الفصاحة**. لبنان: دار الكتب العلمية.

- الجاحظ، عمرو بن بحر(1424ه).**الحيوان**. لبنان:دار الكتب العلمية.
- العلوي،يحيى بن حمزة(1423ه).**الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**.لبنان: المكتبة العصرية.
- الجرجاني، عبد القاهر.(د.ت).**أسرار البلاغة**. السعودية:مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة.
- الجرجاني، عبد العزيز.(1966). **الوساطة بين المتنبي وخصومه**. لبنان: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- المرزوقي، أحمد بن محمد.(1991).**شرح ديوان الحماسة**. لبنن: دار الجيل .
- السكاكي، يوسف بن أبي بكر.(1987).**مفتاح العلوم**. لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن الأثير،نصر الله بن محمد.(د.ت). **المثل السائر**. مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- حسّان،تمام.(2000).**الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللّغوي عند العرب النّحو-فقه اللّغة – البلاغة**. مصر**:**عالم الكتب.
- عبد المطلب،محمد.(1995).**جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم**. مصر :الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان.
- عبد المطلب، محمد.(1995). **بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي**. مصر: دار المعارف.
- عبد المطلب، محمد.(1995).**قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني**.لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان.
- عبد المطلب، محمد.(1994). **البلاغة والأسلوبية**. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان.
- عياد، شكري محمد.(1988). **اللّغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي**. مصر: أنترناشونال برس.
- مصلوح، سعد.(1993). **في النّص الأدبي دراسة أسلوبية**. مصر**:** عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- مصلوح، سعد.(1992). **الأسلوب دراسة لغوية احصائية. مصر:** عالم الكتب
- المسدي، عبد السلام.(2006). **لأسلوبية والأسلوب**. لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- فضل،صلاح.(1998). علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته. مصر: دار الشروق.
- كوهن،جون.(1986). **بنية اللّغة الشعرية**، المغرب: دار توبقال للنشر والتوزيع.
- مايير، ميشيل(2021). **البلاغة**، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- مورو،فرانسوا.(د.ت). البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية.ا لمغرب: أفريقيا الشرق.
- لبرج، رتيلما.(2010). **مدخل إلى اللّسانيات**، مصر: المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- BALLY CHARLES.(1949).TRAITE DE STYLISTIQUE FRANÇAISE , Paris: KLINCKSIECK
- GUIRAUD, Pierre, et KUENTZ Pierre.(1978).La stylistique, Paris: KLINCKSIECK.
- DUBOIS, JEAN,(1994).Dictionnaire de linguistique.France: Larousse.
- COHEN, JEAN.(1966).structure du langage poétique. Paris Flammarion.
- Genette, Gérard.(1969).figure II .Paris éditions du seuil
- Genette, Gérard.(1966).figure I.Paris éditions du seuil
- MAROUZEAU , JULES.(1969).Précis de stylistique française.Paris :Masson et Cie éditeurs.
- MAROUZEAU , JULES.(1921).La Linguistique ou SCIENCE DU LANGAGE , PARIS:LIBRAIRIE PAUL GEUTHNER .

- CRESSOT,MARCEL.(1969). le style et ses techniques précis d’analyses stylistique, Paris: presses universitaires de France.